النيل في العهد الفرعوني

ترعه ، مدنه ، سفنه ، خزان الفيوم

للدكتور حسن كمال

اما طريقة تصريف مياه النيل على الاراضي فكانت بواسطة الترع وتقسيم الاراضي الى حياض بواسطة جسور ، واعلم ان هذه الجسور كان يعهد في حراستها الى خفراء اكفاء لمنع قطعها في أي بقعة حتى لا يتسبب عن ذلك تلف الزراعة وغرق البهائم والقرى . وقد اهتم القوم كثيراً بهذه الحراسة حتى عهدوا في ادائها الى قوة كبيرة من الفرسان والمشاة واسسوا المكاتب العديدة للاشراف عليها وزودوها بالاعتمادات المالية الكبيرة للمحافظة عليها وجعلها دائماً في حالة جيدة . وفي العصر الروماني كان يعاقب كل من يتلف جسراً بالاشغال الشاقة في الاعمال العمومية او المناجم او يوسم ثم ينفى الى الواحات . قال استرابون ان مشاريع الترع والجسور كانت غاية في النظام والترتيب حتى تمكن القوم بذلك من ري الاراضي التي كان يتعذر ريها لو تركت لطبيعتها وهكذا اصبحت الاراضي البعيدة تروى بالترع كالاراضي التي يغمرها فيضان النيل مباشرة

وبديهي ان فيضان النيل اذا زاد عن الحد المعتاد هدد القطر بالغرق لان القرى مشادة باللبن وهذا الاخير اذا تشبع بالمياه تحول الى كتل طينية . ثم ان عمر القرى بالمياه يحول دون انقاذ اهلها وحيواناتها . قال بلينيوس ان الفيضان اذا زاد على ستة عشر ذراعاً حل القحط بالقطر كما يحل لو بلغ اثنى عشر ذراعاً او اقل . (راجع ولكنسون)

وكانت عناية القوم بالترع لا تقل عن عنايتهم بالجسور . فكانوا يعهدون الى مديريهم في المحافظة على ترعهم التي كانت مركبة عليها المعارف اللازمة والفتحات التي تمكن من ري الاراضي بانتظام بحسب الحاجة . وري الاراضي في تلك العصور كان مترتباً على ارتفاع سطحها ونوع النباتات المزروعة فيها . فاذا ما تم الحصاد وانتهت الزراعة اطلقت فيها المياه من اقرب الفتحات اليها . واذا هبط منسوب النيل وبدأ الفيضان في الزوال تقفل فتحات الري وتمنع المياه من الانصراف في النهر او الترع حتى تأخذ الارض ما يلزمها من المياه وتكتسب اكثر ما يمكن من الغرين . وبمجرد ما يتم ذلك تفتح الفتحات فتتسرب المياه في النهر . وجفاف الجو وحرارة الشمس في القطر سرعان ما يجففان

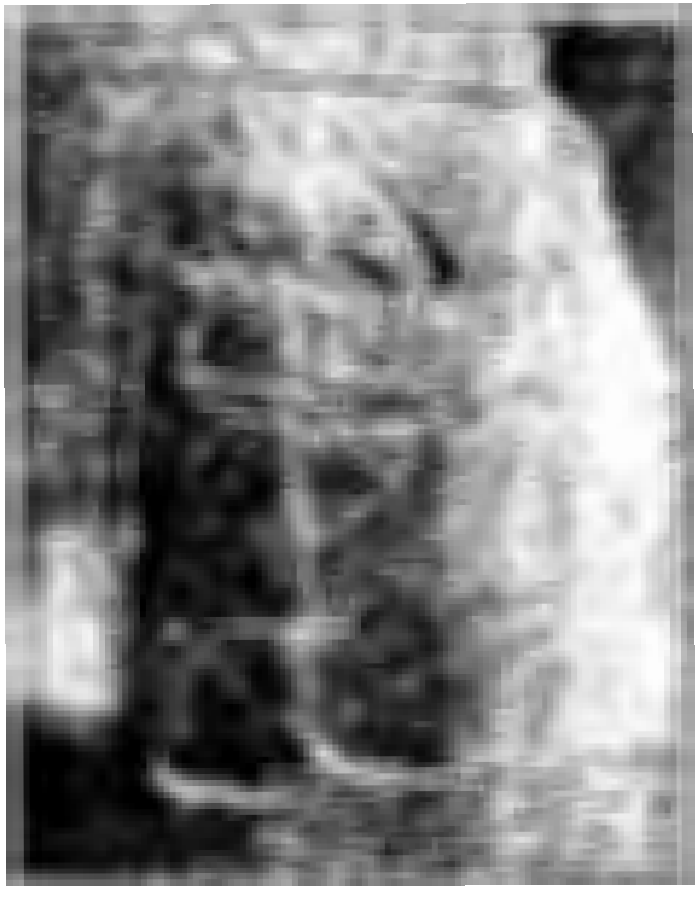

أحد ملوك الأسر الأولى يشق الارض احتفالاً بحفر قناة
جديدة (مأخوذة عن المستر كوبل)

مقتطف مارس ١٩٣٤ امام صفحة ٢٩٧

الارض . لذلك حالما تتسرب المياه ووقتما تكون الارض رطبة يبدأ الفلاح في تهيئتها للزرع بالطرق المتباينة التي تتطلبها طبيعة الارض وجغرافيتها ونوع النبات المراد زرعه فيها

ولا ادلّ على اهتمام الفراعنة بحفز الترع اللازمة لري الاراضي من الاحتفالات الرسمية التي كانت تقام لذلك ويشترك فيها الملك بنفسه . فيأخذ بيده الفأس ويشق الارض لاول مرة مسجلاً بذلك سروره بهذا العمل الجليل . ويجد القارىء في الشكل رقم ١ (المأخوذ عن الاستاذ برستد في كتابه تاريخ مصر القديم) احد ملوك الاسرة الاولى يشق الارض بفأس احتفالاً بحفر قناة جديدة لابساً رداءً منبتاً فوق الكتف ومنتهياً من الخلف بذيل أسد

وكانت للنيل عدة مدن يحتمل انها كانت موقوتة له منها (حات حمي) ، (نويت حمي) ، (نيلوبوليس)

اما سفن النيل فكانت على انواع متعددة . بعضها مصنوع للسياحة الخصوصية او للنزهة والبعض الآخر للشحن . وهذه السفن في مجموعها تختلف شكلاً عن سفن البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر وايضاً عن السفن الحربية النيلية التي كانت تستعمل للحراسة ولفتوحات السودان . اما النوتية فبعضهم كان معيّناً من قبل الحكومة كالذين يعهد اليهم في نقل الاحجار الى المعابد . والبعض الآخر أقلّ درجة من هؤلاء يقومون بشحن البضائع الصغيرة وهم اشبه بالبحارة الحاليين في سفن النيل والملاحظ دائماً ان عمل النوتي المكلّف ادارة الدفة كانت محل اعتبار وامتياز . ومثل هذا الشخص في السفن الحربية كان اعلى درجة من سائر النوتية . اما الشخص المكلف ملاحظة (الهلب) فكان يأتي بعد القبطان في المرتبة

وكثيراً ما تشاهد السفن النيلية منقوشة على المقابر المصرية القديمة . فمقبرة (باحرى) مثلاً التي في جهة الكاب والتي يرجع تاريخها الى الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) تحوي رسمين لسفينتين نيليتين احداهما مشدودة الشراع متجهة جنوباً (اي ضد التيار) . والثانية مطوية الشراع وسائرة شمالاً بواسطة التيار والمجاذيف . وكلتا السفينتين تشبهُ احداهما الاخرى تماماً . وفي كل منهما حجرة صغيرة ذات نافذتين وبسطة بمقدم السفينة واخرى بمؤخرها . وتشاهد عربة على سطح الحجرة وخيل خلف النوتي . ويستنتج من كل هذا ومن الالوان الزاهية المزينة بها هاتان السفينتان انهما كانتا تستعملان لنزهة هذا الامير . وفي مقدم السفينة السائرة جنوباً يلاحظ نوتي قابض على مدراة يسير بها غور البحر ليجتنب الاصطدام بقاعه . وفوق هذا النوتي كتبت كتابة هذه ترجمتها :—

« دعنا نعطي الاشارة للذهب ونتجه الى بيت المال تلك البلدة الجميلة الزاهية ! فيردّ عليه القبطان لا تتكلم سدى ايها الشخص الواقف على مقدم السفينة ».

وبهذه الطريقة وامثالها يجد الباحث الكثير من السفن مرسومة على المقابر والمعابد . ومن هذه

الرسوم يتضح للانسان ان السفن كانت اهم واسطة للانتقال بين البلدان البعيدة ولشحن المحاصيل والحيوانات وللقيام بالغزوات والرقابة والنزهة والصيد وغير ذلك وليس هذا مقام الافاضة فيها لذلك سنكتفي الآن بما اوردناه

وقبل الفراغ من هذا البحث يجدر بنا ان نذكر شيئاً عن طرق الري التي انشأها الفراعنة باقليم الفيوم وما جناه القطر من هذه المشروعات العظيمة ومقدار ما امكن توفيره من مياه الفيضان السنوي لينتفع به الوجه البحري بعد زواله

معلوم ان اقليم الفيوم يقع في صحراء لوبيا على ارتفاع ٣٠٠ او ٤٠٠ قدم فوق سطح البحر . اما اسم الفيوم فأصله بالمصرية القديمة (پايوم) اي اليمّ او البحر . وهذا الاقليم هو في الحقيقة اقرب واحة لوادي النيل . وهو خصب التربة جيد المناخ بيضاوي المساحة تحيط به التلال . وقد اشتهرت هذا الاقليم عالية حتى العهد البطالسي والروماني . فقد قال عنه استرابون «ان مديرية الفيوم اغرب المديريات بالنسبة الى مناظرها الفتانة وخصبها وزراعتها . فهي الوحيدة التي تكثر فيها زراعة الزيتون بنجاح . ومعلوم ان كلما حسن الزيتون طاب زيته . وكلما اهملت زراعته ساءت رائحة زيته . ولا يوجد بالقطر المصري اقليم آخر يزرع فيه الزيتون كالفيوم الاّ حدائق الاسكندرية . لكن في هذه الاخيرة يجد الانسان الزيتون دون الزيت . اما العنب والقمح والحبوب الاخرى وغيرها فتكثر في هذا الاقليم (اي الفيوم)

والى بحر يوسف يرجع الفضل الاكبر في خصب الفيوم . وهذا البحر يتفرع من ترعة الابراهيمية بالقرب من دير وط . ثم ينعطف عند اللاهون ويخترق سلسلة جبال لوبيا . ثم يتفرع هناك الى عدة افرع تتوزع بواسطتها المياه الى سائر جهات الاقليم . وبعد ما يدخل بحر يوسف مديرية الفيوم يأخذ سطح الارض هناك في الانخفاض تدريجاً نحو الغرب حتى الشاطىء الشرقي لبركة قارون (راجع انموذج مديرية الفيوم المجسم بمتحف الجيولوجيا بالقاهرة)

وكانت مديرية الفيوم تعرف قديماً باسم (تي شي) ومعناها (ارض البحيرة) نسبة الى البحيرة الكبرى الوارد ذكرها كثيراً في كتب المؤرخين والجغرافيين اليونانيين تحت اسم «بحيرة موريس» (واصله بالمصرية مو — ار ومعناه البحيرة الكبيرة) . ولم يبق منها الآن الاّ بركة قارون . وفي اقدم العصور كانت البحيرة تشمل كل الاقليم لكنها جفت تدريجاً في الازمنة التاريخية الى ان اصبحت محصورة بين قصر الساغة شمالاً وبياهمو وابشواي والعجميين جنوباً ويبلغ طول ساحلها ١٤٠ ميلاً ومساحتها حوالي ٧٧٠ ميلاً مربعاً . اما سطح مياهها فكان أعلى من سطح مياه البحر الابيض المتوسط بحوالي ٧٣ قدماً وهو الآن اقل منه بحوالي ١٤٤ قدماً . وهكذا لما جفت بحيرة موريس القديمة خلفت جنوبها اقليما خصباً تأسست عليه مدينة (شدت) المعروفة باسم كركوديلو بوليس والتي كانت محاطة بالجسور لحفظها من الفيضان النيلي . وكثير من حكام الاسرة الثانية عشرة

استوطنوا الساحل الشرقي لهذا الاقليم وعلى الاخص امنمحعت الثالث (١٨٢٠ قبل الميلاد) واختارت الملكة (تي) زوجة امنوفيس الثالث (١٤١١ — ١٣٧٥ ق . م) اللاهون مسكناً لها . وفي العهد اليوناني وعلى الاخص في عهد بطليموس الثاني المعروف باسم فيلادلفاس حفرت البحيرة بواسطة الجسور الى ما يقرب من حجمها الحالي فاكتسبت بذلك عدة اراضي للزراعة كانت سبباً في عمار هذ الاقليم كما يستدل عليه من المدن اليافعة والقرى الغنية التي كانت مشادة عليها . وفي عامي ١٩٢٧ و١٩٢٨ ميلادية اكتشفت مشروعات الري الكبرى التي أسسها فيلادلفاس المذكور وقد وصف استرابون هذه البحيرة قائلاً : —

ان هذه البحيرة بالنسبة الى حجمها وعمقها كانت تخزن مياه النيل بسهولة بدون اغراق الاهالي والحبوب . فاذا ما انخفض النيل وزالت زيادة مياه البحيرة عن طريق القناة (بحر يوسف) اصبح مقدار المياه الذي فيها كافياً لري ذلك الاقليم . وهناك اهوسة عند طرفي القناة يشرف عليها مهندسون لمراقبة مقدار المياه الداخلة فيها والخارجة منها . ولا تزال بالقرب من اللاهون بقايا هويس قائمة حتى الآن

اما قول هيرودوتس ان هذه البحيرة اصطناعية فخطأ فضلاً عن مناقضته لرواية استرابون وشمال مدينة الفيوم توجد تلال قذرة تعرف باسم كيمان فارس مساحتها ٥٦٠ فداناً هي في الحقيقة بقايا كركوديلو بوليس او ارسينو . وهذه التلال هي اكبر آثار مصرية باقية لمدينة قديمة وقد استعمل كثير من اتربتها للسباخ وصنع الطوب . وهذه المدينة كانت تعرف قدماً باسم (شدت) كما المعنا سابقاً . وكانت مركز عبادة التمساح المعروف قدماً باسم (سبك) والى هذا الاخير كان يعهد في محافظة الاقليم . وهذا هو السبب في ان اليونان سموا البلدة كركوديلو بوليس اي مدينة التمساح . لكن هذه المدينة لم يكن لها شأن كبير في السياسة مدة وجودها . وفي عهد بطليموس الثاني اصطبغت بالصبغة اليونانية وشيدت فيها احياء يونانية وكذا معابد يونانية ومدارس وغير ذلك . ولما رقيت بعد ذلك الملكة (ارسينو) الى درجة التقديس هناك سميت المدينة باسم مدينة ارسينو . وقد بلغ مقدار سكان هذه المدينة في ريعانها المائة الف نسمة

وفي مديرية الفيوم ترك امنمحعت الثالث اهم آثاره . لكن اول من تداخل في طبيعة هذا الاقليم هو امنمحعت الاول . ولا يزال تمثاله عند مدينة الفيوم يثبت ما اكتسب هذا الملك من مساحة عظيمة من البحيرة الاصلية لاستغلالها للزراعة . ولا يبعد ان يكون الجسر العظيم القريب من المعبد القديم هناك جزءاً من اول خزان شيد لكسب بعض الاقاليم من البحيرة . وهذا الخزان لا بد ان يكون ممتداً حتى إبجيج التي تبعد حوالي ثلاثة اميال او اربعة عن المعبد وذلك في عهد اوسرتسن الاول الذي لا تزال مسلته منصوبة هناك للآن

فلما حكم امنمحعت الثالث قامت حكومته بعمل مشروعات الري الكبرى في الفيوم فانشأت

خزاناً كبيراً (هو في الحقيقة جسر عظيم) طوله حوالي العشرين ميلاً في البحيرة مكتسباً بذلك ما مساحته عشرين الفاً من الافدنة. وهذه الاراضي المكتسبة هي اخصب الاراضي هناك وفي الطرف الشمالي لهذا الخزان (وهو المعروف الآن باسم بياهمو) شيد رمسيفان كبيران بالاحجار ونصب عليها تمثالان شاهقان لهذا الملك كل منهما مصنوع من قطعة حجرية واحدة ارتفاعها حوالي ١٣ متراً . وفي المتحف الاشمولي باكسفورد بقايا هذين التمثالين . ولم يكن المقصود من اقامة هذا الخزان اكتساب اراض خصبة للزراعة فقط بل كان الغرض منه ايضاً التحكم في تصريف مياه النيل من البحيرة والبها . وقد استمرت هذه الوقاية حتى زمن هيرودوتوس . وبقيت هذه البحيرة آلاف السنين تستعمل خزاناً لمياه الفيضان للانتفاع به بعد زواله . وهكذا يرجع الى قدماء المصريين الفضل في انشاء الخزانات منذ اقدم العصور (راجع خريطة الفيوم)

ثم اكمل هذا المشروع لسببين اولهما رسوب غرين النيل بنسبة اكبر في الارض القريبة من النهر عنها في الارض البعيدة . فنجم عن ذلك ارتفاع منسوب الاراضي القريبة من شاطىء النيل وارتفاع منسوب قاع النهر نفسه عما كان عليه سابقاً فتعذر بذلك صرف المياه المخزونة في النيل ثانية . ثانيهما ان البطالسة كانوا مهتمين باكتساب اراض واسعة باقليم الفيوم لانشاء مستعمرات للجنود المقدونيين (وخصوصاً في عهد بطليموس سوتر) . لذلك اقتصر على ارسال مياه النيل في البحيرة بمقادير تكفي فقط لري الفيوم . وهكذا تركت البحيرة تجف تدريجاً . وهكذا تمكن الجنود المقدونيون من الاستيطان هناك هم وعائلاتهم فنشأت المدن وشيدت المعابد

واهتم امنمحت الثالث بتجميل المعبد الذي اقامه اجداده بمدينة التمساح (كركوديلوبوليس ارسينوا) تلك المدينة التي كانت تعرف وقتئذ باسم (شِدْ) اي المدينة المنقذة او المكتسبة اشارة الى المجهودات العظيمة التي بذلها الفراعنة في انقاذ اراضي البحيرة الخصبة واكتسابها لاستعمالها في الفلاحة

وقدر المهندسون حديثاً مقدار المياه التي كانت تحجز في بحيرة الفيوم وقت الاسرة الثانية عشرة بضعف حجم مياه النيل اسفل اقليم الفيوم لمدة مائة يوم ابتداء من اول ابريل من كل عام

وحكم امنمحت الثالث مصر مدة خمسين سنة حل فيها النعيم والامن والسكينة في البلاد حتى ترنم القوم بجلالته قائلين ما تعريبه :

هو (اي الملك) يكسو القطرين حلة خضراء اكثر من النيل العظيم
لقد زاد القطرين قوة ..... (كيف لا) وهو نفس الحياة المرطب للانوف ....
هو الذي يوزع الخيرات على تابعيه . هو المغذي لخلقائه
هو الغذاء وفي فمه الخير (راجع تاريخ مصر القديم تأليف برستد وترجمة حسن كمال)